دير استثنائي

من بعد ميلانو على سفح جبل الألب يقوم دير شدّ اليه الاسبوع الماضي البطريرك اغناطيوس الرابع بسبب من انفتاح على الارثوذكسية مذهل اذ لم أشاهد صدقا وشفافية كما شاهدت في هذا الدير المرمي في قرية بوزه Bose وعُرف بها.

لا حاجة لقارئي ان يعرف كل الأعمال التي يقوم بها رهبان وراهبات من زراعة ونجارة وخزفيات ورسم ايقونات واصدار كتب. كل هذا يدل على انهم يجيئون من التراث ولكنك تشعر انهم لا يطلون عليك من العصور الغوابر. ومن الفرادات انهم على مذاهب مختلفة ولو كثر الكاثوليك.

يعرفون الكثير اذ يمضون سنوات في ما نسميه مرحلة الابتداء أو المريدية كما قالت المتصوفة. ويلحون في دراساتهم على ان يأتوا في قراءتهم للكتاب الإلهي مما يسمى الأسلوب النقدي ومن العلوم الحديثة المساعدة لتفهم النصوص. لا يخيفهم التبصر العقلي العصرية تقنياته والقائم في حدود التقوى وما تسلمناه في خشوع الاوائل. الكثلكة الغربية التي كانت وجلة عند هذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية اجترأت على النقد، على تبين ما هو تاريخي وما كان غير تاريخي، في ما كان واقعا وفي ما كان مجازاً على ما يتضمنه هذا من مخاطر الافتراض والانجرار وراء الأزياء الفكرية المتحكمة في اللاهوت. أظن ان التقوى الحقيقية هي التي تجعلك ترى الفرق بين الثابت والمتحرك. التقوى هي الميزان الذي يحررك ويلجمك لأن التقوى هي التواضع.

* * *

في منحى التقديس هذا ترى ان الأخ المسؤول، المصلي Prieur كما تقول لغات الغرب (لا الرئيس) وهو أشبه بالإمام الذي لا يعلو أحداً ولكنه يرشد ضمن الجماعة وتكون طاعة الفرد لها اذ تتطهر هي بالإخلاص والعلم بالله. وتراهم كلا على اختلاف في المواهب وتمايز بلا طبقية. فالعالم منهم يكون طاهيا اذا اقتضى ذلك التنظيم.

ولعل أهم ما ألغى الطبقية انهم مجموعة لم ينل منها الكهنوت الا اثنان لأجل إقامة الأسرار. والاول بينهم على انه عالم لاهوت بعد دراسته الاقتصاد أبى ان يصبح قسا وآثر ان يُرصف بين العامة حيث لا وجاهة في الدنيا. ولكون هذه الصيغة لم يخول هؤلاء الإخوة ان يكونوا تابعين للفاتيكان مباشرة ارتضوا ان يكونوا متصلين قانونيا بالأسقف المحلي كأنهم اقتبلوا ان يصيروا "نسيا منسيا".

يرتدون الثياب المدنية لا ما عرف باللباس الرهباني لأن اوائل الرهابين لم يتميزوا بشيء والامحاء يقضي بأن يكون مظهرك على ما يظهر به الناس واما الباطن فربك عارفه. غير انهم في العبادات يبدون بلباس واحد ابيض. فالعبادات عندنا استباق للملكوت وما تحلم ان تكون فيه باديا لربك. لباس مدني لا افتقار مغاليا فيه ولا استكبار. والقيافة المسماة عندنا اكليروسية على تواضعها أصلا يمكنك ان تدعي فيها التواضع وقد لا يكون لك فيه من أثر. وقد انتهج اسلافنا في ديارنا منهج اللباس الذي للفلاح المشرقي وذلك في زمن ليس عنا ببعيد. فها انت ترى خريزنتوس (صليبا) المولود في بتغرين الأسقف الارثوذكسي على زحلة تراه مرتديا الثوب الوطني ورداؤه العباءة السوداء لا الجبة لأن المبتغى ان من احترف التواضع يكون على ما يظهر من الناس لعل باطنه يصبح ملكوتيا.

* * *

يلفتك ان تجد في أقاصي ايطاليا الشمالية ديراً كهذا يحب الارثوذكسية حب إعجاب وفهم. ويبدو هذا ظاهراً في ان ثمة حلقة سنوية مخصصة للروحانية الارثوذكسية في وجهها القديم (اليوناني بخاصة) وفي وجهها الحديث نسبيا أعني الروسي. والحلقة يشترك فيها اساقفة وعلماء من الكنيستين متخصصون بالفكر الارثوذكسي. ثم تجد عدة كتب في الحياة النسكية والروحية الارثوذكسية تباع هناك بعدما نقلت الى الايطالية وبعض منها مما وضعه كتاب الكنيسة الأنطاكية.

على صعيد الفن تجد في كل غرفة ايقونة بيزنطية أو تجد محاولة لاستعادة الفن الغربي المتأثر بالفن البيزنطي تأثرا عميقا.

عند استقبال الرهبان البطريرك اغناطيوس (هزيم) وصحبه (مطرانين وثلاثة علمانيين) بما فيهم من فرح وتوقير ولهفة اخذت أفهم كيف ان المحبة وحدها تسقط حواجز الدهور بما تراكم في الفكر من تصورات للآخر وتاريخه ولاهوته. غير انك تدرك اذا عرفت أمثال اولئك ان المحبة مفتاح الفهم فاذا دخلت بيت الإشراق وانكشفت لك حقيقة الكنيسة الاخرى واغتسلت عند الينابيع تصبر صبرا جميلا الى ان نلتقي.

عندما سمعت الأخ الاول – هكذا يحلو لي ان اسميه – يرحب بالسيد البطريرك على صدق حرارة وفي عمق التقديس للكنيسة التي يحملها البطريق على كتفيه ادركت اننا نحتاج الى التقاء القلب والعقل لنصل الى شفافية بيننا تزول عندها العقبات.

ناقشنا علاقات الكنيستين بوضوح كامل. استمعنا كثيراً لأننا كنا في ايطاليا حجاج فهم. أصغينا الى غير عالم كاثوليكي من الأكابر أتوا الى الدير من بعيد للقائنا. طرحنا الأسئلة على حدتها في ما هو خلافي وفي ما يتعلق بالاوضاع الحاضرة. كانوا يجيبون بدقة وتواضع كبيرين بلا محاباة ولا تحذلق ولا اعتذارية لأن هذه هي استكبار الضعفاء.

في ظني ان المحبين العالمين ستسمع لهم كنائسهم عاجلا أم آجلا لأن الصدق غلاب والمعرفة الكبيرة غلابة ايضا. اذا حل أوان الرضاء فنزل علينا نجلس معا حول مائدة الرب.

المطران جورج خضر